العلم الحديث

حجة للإنسان أم عليه ؟

القسم الأول

تأليف
الدكتور عبد الله عبد الرحيم العبادي

نشر وتوزيع
دار الثقافة
قطر الدوحة - ص.ب ٣٢٣

كافة حقوق الطبع والنشر والترجمة محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ = ١٩٨٥ م

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية ٣٤٠ / ١٩٨٥

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله خالق الكون موجد الخلق ، بديع السموات والأرض ، مسير الشمس والقمر ، والنجوم ﴿ **لا الشمسُ يَنْبغي لها أنْ تُدركَ القمرَ ولا الليلُ سابقُ النهار وكلٌّ في فَلكٍ يَسْبَحون** ﴾[1] . والصلاة والسلام على خير خلقه المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله ، وصحبه والتابعين .

وبعد ، فإن العلم المطلق ، وأسرار هذا الكون العظيم هو من حق الله وحده ، وإن كان البشر قد حاولوا ، ويحاولون جاهدين ، وبكل الوسائل بأن يدركوا كنهه ، أو يكشفوا عن بعض ما يحويه من أسرار ، ومن آيات خفية ، فإنهم لا يزالون حيارى أمام قدرة القادر ، وأسرار خلقه ، فإن ما كشفوه حتى الآن ، وظهر لهم ما هو إلا ذرة من ذرات هذا الكون الواسع الذي لا يدرك مداه إلا الله مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ **وما أُوتِيتُمْ مِنَ العِلْمِ إلاّ قَليلاً** ﴾[2] .

وكلما توصلوا إلى شيء ، فستكون هناك أشياء كثيرة لا حصر لها لا يستطيعون الوصول إليها ، ولا معرفة كنهها على وجه الأرض فضلاً عما في الكون العلوي ، أو العالم السفلي ، وهذا برهان قاطع يدل على عجز الإنسان ، وقصر فهمه ، وحدود إدراكه فنحن نرى أن العلم في عصرنا هذا قد تقدم تقدماً ملموساً إلى حد كبير ، فقد سيطروا على كثير من الأمراض ، وكشفوا لها الدواء اللازم ، والعلاج الناجع ، وكذلك نراهم نجحوا في كثير من العمليات ، ولكن مع ذلك ، فقد ظهرت أوبئة ، وأمراض خطيرة للغاية ، أخطر مما

---

(١) يس آية : ٤٠ .

(٢) الإسراء آية : ٨٥ .

سبقها من الأمراض ، لم تكن معروفة فيما مضى من الزمن نتيجة لطغيان البشر ، وتحديهم لقوانين الخالق ، ونواميسه في خلقه ونتيجة لتعدي حدود الله ، ومخالفة لأوامره ..

وسيظلون هكذا حيارى أمام قدرة القادر ، وعظيم سلطانه فإنهم كلما كشفوا شيئاً ، فستظهر لهم أشياء كثيرة لا حصر لها ، تنبىء عن مدى احتياج الإنسان لخالقه ، وافتقاره إليه وأن العلم المطلق لله وحده ، لم يحصل الإنسان سوى على الشيء اليسير من علمه الواسع .

ولا مانع لدينا من أن نلقي الأضواء في هذا البحث المتواضع على ما كشفوه حتى الآن ، وما توصلوا إليه لندرسه دراسة وافية ، ثم نعرضه على كتاب الله ، وسنة رسوله ، فما كان موافقاً لما قبلناه ، وما كان مخالفاً رفضناه ، لأننا في حقيقة الأمر بعد الإيمان الراسخ بالله ، واليقين التام من أن كتاب الله تعالى هو الحق ، وأن محمداً عبده ورسوله وأن كل ما جاء به هو الحق المبين ـ لسنا في حاجة إلى علم الإنسان المخلوق الضعيف ، ولكننا سنذكر ذلك على سبيل الاستئناس فحسب .

وسيظل هذا القرآن العظيم هو المعجزة الكبرى لهذا النبي الكريم سواء أكان في سالف الزمان ، أم في حاضره ، أم في مستقبله !!

ولا شك في أن التوصل إلى مثل هذه الشواهد من الحقائق الثابتة بالبراهين العلمية ، سواء ما يتعلق بخلق الإنسان ، أم ما يتعلق بهذه الأرض التي نعيش عليها ، أم بالأجرام العلوية نصرة للدين الإسلامي ، وحجة عظيمة وقوية للإنسان المسلم الذي آمن بكل ما جاء على لسان نبيه محمد ﷺ ، وأن هذا القرآن حقاً من عند الله ، وأيقن اليقين التام أن ذلك لا يمكن أن يصطدم

أبداً بالحقائق الكونية الثابتة ، سواء أكان في الماضي ، أم في الحاضر ، أم في المستقبل .

أما بالنسبة للجاحد المعاند الذي أنكر وجود الخالق العظيم ، أو تفرده بالوحدانية ، وأنكر رسالة محمد ﷺ ، فإنه حجة عليه ، لأنه بعد ما كشف العلم الحديث الكثير من الحقائق العلمية والكونية التي جاءت موافقة للقرآن الكريم ، ومصدقة إياه لم يعد هناك سبيل للإنكار ، لكي يتذرع به أولئك الجاحدون المتمردون ، حيث إن البرهان قد ثبت ، والحقيقة قد ظهرت والمعجزة قد تحققت على أيديهم أنفسهم ، وليس على أيدي أتباع الإسلام. يقول تعالى موضحاً ما سيكون مستقبلاً وهو علام الغيوب : ﴿ **سَنُرِيهِمْ آياتِنَا في الآفاقِ وفي أَنْفُسِهم حتى يَتبيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّك أَنَّه على كلِّ شيءٍ شَهِيد** ﴾[1] .

فالضمير في قوله تعالى : ﴿ **سَنُرِيهِم** ﴾ يعود على الجاحدين المعاندين المنكرين لرسالة محمد ﷺ ، والكافرين بكتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه .

وقد شاءت إرادة الله تعالى ، واقتضت حكمته أن يتوصل إلى كل هذه الشواهد من الحقائق ، والكشوفات العلمية والكونية ، هم أعداء الإسلام ، والجاحدون لآياته ، وأن تتحقق على أيديهم أنفسهم ، لا على أيدي أتباع الإسلام ، وإن كانوا هم أولى بها من غيرهم .

---

(١) فصلت آية : ٥٣ .

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ **في الآفَاقِ** ﴾ أقوال ذكرها القرطبي :[١] قول يقول : هي علامات وحدانيتنا ، وقدرتنا في ﴿ **الآفاق** ﴾ يعني خراب منازل الأمم الخالية . وقول يرى أن الآفاق آيات السماء وقال مجاهد ﴿ **في الآفاق** ﴾ فتح القرى لما تيسر للرسول ، والخلفاء من انتصارات ، وفتوحات ، وهو اختيار الطبري ، وقاله المنهال ، والسدي ، وقال قتادة والضحاك ﴿ **في الآفاق** ﴾ وقائع الله تعالى في الأمم ، وقال عطاء وابن زيد ﴿ **في الآفاق** ﴾ يعني أقطار السموات والأرض من الشمس ، والقمر ، والنجوم ، والليل والنهار ، والرياح ، والأمطار ، والرعد ، والبرق ، والصواعق والنبات والأشجار ، والجبال ، والبحار ، وغيرها .

ولا يخفى أن الرأي الأخير أقرب للصواب ، وقد جاء في الصحاح وغيره أن الآفاق : النواحي جمع أفق .

كما جاء في تفسير : ﴿ **وفي أنفسهم** ﴾ أي البلايا ، والأمراض ، وقال ابن زيد حوادث الأرض . وقال القرطبي ﴿ **وفي أنفسهم** ﴾ من لطيف الصنعة وبديع الحكمة حتى سبيل الغائط ، والبول ، فإن الإنسان يأكل ويشرب من مكان واحد ، وذلك يتميز من مكانين ..

هذه هي تفاسير المتقدمين ، لأنه لم يخطر ببالهم أبداً كل هذه الاختراعات الحديثة التي توصل إليها الإنسان ، وطار بها من على سطح الأرض ليحل على سطح القمر ، وليكشف الكواكب الأخرى وليجول ، ويصول في أقطار السموات والأرض ، ويكشف العديد من أسرار هذا الكون العظيم . أما اليوم

---

(١) انظر القرطبي ١٥ / ٣٧٤ وفتح القدير ٤ / ٥٢٣ .

فقد وضح كل ذلك ، كما أنهم قد توصلوا إلى أسرار تكوين الإنسان كما جاء في القرآن الكريم ، وتوصلوا إلى علاج كثير من الأمراض المستعصية وتمكنوا من كشف ما بداخل الإنسان من كيفية تركيب أعضائة الدقيقة ، ومن عجيب أمر سيرها في جسمه فبدا لهم واضحاً عظمة الخالق ، وبديع صنعه في خلقه ووحدانيته ، وتفرده بالخلق .

أما الضمير في قوله تعالى ﴿ **أنه الحق** ﴾ فقد نقل القرطبي في ذلك أقوالاً : [١]

أحدها أنه القرآن ، والثاني أنه الإسلام ، والثالث أن ما يريهم الله ويفعل ، الرابع أنه محمد ﷺ .

والذي أرجحه هو عوده على القرآن ، وإذا قلنا إنه راجع إلى القرآن فإنه راجع بالضرورة إلى الإسلام ، وإلى محمد ﷺ .

فمعنى الآية ـ والله أعلم ـ سنريهم العلامات الواضحات الدالة على وحدانية الله تعالى ، وقدرته في نواحي الأرض والسموات وفي أنفسهم حتي يتبين لهم أن هذا القرآن هو الحق ، وأنه من عند الله تعالى ، وأن محمداً عبده ورسوله حقاً لا ينطق إلا بما علمه خالق الخلق ، وموجد الكون .

بذلك فإن النذير قد جاءهم ، والحجة قد قامت وثبتت عليهم والبراهين قد وضحت ، فلم يبق بعد ذلك سوى العناد ، والتحدي لذا فإني أرجح القول القائل بأن ﴿ **النذير** ﴾ في قوله تعالى : ﴿ **أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ**

---

(١) انظر القرطبي ١٥ / ٣٧٥ .

﴿ مَنْ تَذكّر وجَاءَكُمْ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا للظَّالِمِينَ مِنْ نَصِير ﴾[١] هو العقل .

فالله سبحانه يقول للمنكرين يوم القيامة موبخاً إياهم : أولم نعمركم في الدنيا عمراً كان يمكن لكم فيه أن تتذكروا وتتدبروا ، وتتبصروا بواسطة العقل الذي أنعمنا به عليكم ، فتهتدوا إلى الحق ، فتتبعوه ؟!

وقد نقل الشوكاني رحمه الله تعالى في ذلك أقوالاً : قولاً يرى أنه الرسول الكريم صلوات الله عليه ، وعليه جمهور المفسرين ، وقولاً يرى أنه القرآن ، وقولاً يرى أنه الموت أو الشيب ، وقولاً يرى أنه موت الأهل والأقارب ، وقولاً يرى أنه كمال العقل[٢] .

فعلى القول الأخير (أن النذير هو العقل) فإني أرى أن هذا القول ليس ببعيد ـ وإن كان القول الأول والثاني هما الأساس في النذارة ـ لأن العقل هو السبيل لكي يجعل الإنسان يفكر ويتدبر فيما هو الأصلح والأفضل والأمثل للإنسان ، وهو مكلف وملزم بأن يبحث ، ويبحث ، ويبحث حتى يصل إلى الحقيقة ، فيتضح له الحق ، فيتبعه .

لذلك نرى أن الله تعالى قد حكم على أولئك الذين لا يستعملون قلوبهم وأبصارهم وأسماعهم في التفكر والتدبر بأنهم كالأنعام ، بل هم أضل لأن الأنعام قد تدرك ما ينفعها ، وما يضرها ، فتقبل على النافع وتبتعد عن الضار قال تعالى : ﴿ لَهُمْ قُلوبٌ لاَ يَفْقهونَ بها وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرون بِها ، ولَهُمْ

---

(١) فاطر آية : ٣٧ .

(٢) انظر فتح القدير ٤ / ٣٥٤ .

آذَانٌ لا يَسْمَعون بِها أُولئِكَ كالأنْعامِ بَلْ هم أضلُّ أُولئِك هُمْ الْغَافِلون ﴾[١] .

فحكم عليهم سبحانه بالغفلة الكاملة ، لما هم عليه من عدم التمييز الذي هو شأن كل عاقل ، ومبصر ، وسامع .

ونرى الآية التالية تحضهم على السير في الأرض ، ليشاهدوا آيات الله في مخلوقاته ، فيعتبروا ويتدبروا ويعقلوا ﴿ **أَفَلَمْ يَسيروا في الأَرضِ فَتكون لَهم قُلوبٌ يَعْقِلون بها أَو آذانٌ يَسْمعون بِها فإنَّها لاَ تَعْمىٰ الأَبْصَار وَلَكِنْ تَعْمىٰ القُلُوب التي في الصُّدور ﴾**[٢] .

فهذا العقل في الواقع ما هو إلا نذير للإنسان وهو حجة عليه ولا شك في أن هذه الاختراعات ، والعلوم ، والتكنولوجيا التي توصل إليها الإنسان اليوم ما هي إلا ناتجة عن هذا العقل الذي أمد الله به الإنسان ، وميزه ، وفضله على سائر مخلوقاته ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ في البَرِّ والبحْرِ وَرزقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيبَاتِ وفَضَّلْنَاهُمْ عَلى كثيرٍ مِمّنْ خَلقْنَا تَفْضِيلاً ﴾**[٣] .

فمن أعظم ما فضل الله به الإنسان هو هذا العقل ، ويليه النطق ، والتمييز .

ومن يسلك بعد ذلك غير هذا السبيل القويم (الإسلام) لا يخرج عن كونه واحداً من أربعة :

---

(١) الأعراف آية : ١٧٩ .

(٢) الحج آية : ٤٦ .

(٣) الإسراء آية : ٧٠ .

١ ـ شخص غرته الحياة الدنيا ، وغره علمه القليل ، مهما كثر في ظنه فظن أنه بلغ أسباب الحقيقة ، فمن الطبيعي أن يضل عن سواء السبيل ، وخير وصف لهذا النوع من البشر قوله تعالى : ﴿ **زُيِّنَ للذِينَ كَفَرُوا الحياة الدُّنيا ويَسْخَرونَ مِنَ الذينَ آمنوا** ﴾[١] .

٢ ـ شخص عقله مقفل لا يتجاوب مع الحقائق التي أمامه وبين يديه ، فحرم مزايا الفهم والإدراك الصحيح ، وأحسن وصف لهذا النوع من البشر قوله تعالى : ﴿ **أُولئِك كالأَنْعَام بَلْ هُمْ أَضلُّ أولئِك هُمْ الغَافِلون** ﴾[٢] وقوله تعالى : ﴿ **والذينَ كفَروا يَتَمتَّعون ويَأْكُلون كَما تَأكُلُ الأَنْعامُ والنَّارُ مَثْوىً لَّهُم** ﴾[٣] ﴿ **أَفَلا يَتَدبَّرونَ القرآنَ أَمْ على قلوبٍ أَقْفَالُها** ﴾[٤] .

٣ ـ شخص ضعيف الإرادة فسيره من هو أقوى منه ، فاتبع شيطانه ، وهواه وخير توضيح لمثل هذا الصنف قوله تعالى : ﴿ **الذينَ اتَّخذوا دِينَهُمْ لَهواً ولَعِباً وغَرَّتْهُمْ الحياةُ الدنيا** ﴾[٥] .

٤ ـ وصنف إذا أصابه الخير من الله أعرض ونأى بجانبه ونسي خالقه ، ومن هذا الصنف كثير ﴿ **كَلاَّ إنَّ الإنسانَ ليَطْغىٰ ۞ أَنْ رآهُ اسْتَغْنىٰ** ﴾[٦] ﴿ **وإذَا أَنْعَمْنا عَلى الإنسانِ أعْرَضَ ونَأىٰ بجانِبِه** ﴾[٧] .

ويجب أن ننبه إلى أن كتاب الله تعالى لم يأت ليعلم الناس الطب أو

---

(١) البقرة آية : ٢١٢ .
(٢) الأعراف آية : ١٧٩ .
(٣) محمد آية : ١٢ .
(٤) محمد آية : ٢٤ .
(٥) الأعراف آية : ٥١ .
(٦) العلق آية : ٦ ، ٧ .
(٧) الإسراء آية : ٨٣ .

الجغرافيا ، أو علم الطبيعة ، أو التنقيب عن الآثار .. وإنما جاء لهداية البشر ، وليعالج النفوس المريضة أولاً وقبل كل شيء ويوجه البشرية الضالة عن ـ طريق الحق ـ الموغلة في الفساد والإفساد في الأرض ـ التوجيه النافع لها في الدنيا والآخرة ويضع الأسس المتينة ليسيروا عليها ، ويتمسكوا بها وليبعدهم عن طريق الشر والرذيلة والانحطاط في الأخلاق .

فهداية البشرية الحائرة إذن ومعالجة النفوس الْمَريضة وتبصير الحيارى ، والضالين عن الطريق الصحيح إلى ما فيه صلاحهم ، وفلاحهم في الدنيا والآخرة هو الهدف الأساس والغاية العظمى التي من أجلها أرسل الرسل وأنزل الكتب .

وإلا فما قيمة ذلك الإنسان الذي تعلم الطب ، ومهر فيه أو ذلك العالم الفلكي الذي نجح في علم الفلك بتفوق وهو بعيد كل البعد عن معرفة خالقه ، والمنعم والمتفضل عليه ، وبعيد كل البعد عن كل القيم والأخلاق النبيلة ، وتهذيب النفس ؟ أو ذلك البرفسور في علم الطبيعة ، وهو لايعرف سوى أن يملأ معدته بالأكل والشرب وينام ..؟

وما قيمة ذلك التمثال المرصع بالجواهر المزين بالذهب والفضة وهو مجرد من الروح ؟

ومع ذلك فإننا نرى أن القرآن الكريم قد اشتمل على كثير من الحقائق العلمية ، والكونية ، وقد نزل هذا القرآن قبل أربعة عشر قرناً من الزمان ، فأثبت تلك الحقائق قبل أن يعلم الناس شيئاً من ذلك ، بل نزل أول ما نزل في عالم أكثر الناس فيه جهلاء لا يعرفون القراءة ، ولا الكتابة ، وليس لديهم سوى العلم اليسير ، إلى أن أتى العلم الحديث واعترف بها اعترافاً كاملاً ويعترف

بها يوماً بعد يوم .

فهاهم قد شهدوا على أنفسهم بالعناد والجحود بعد إقامة الحجة عليهم ، وبواسطة أنفسهم .

كما يجب أن ننبه إلى أنه لا يوجد كتاب سماوي ، أو وضعي قد اشتمل على كل العلوم من طبيعة وكيمياء ، وعلم اجتماع ، وطب وعلم فلك .. بالإضافة إلى وضع الأسس ، وسن القوانين للمجتمع وبيان الآداب ، والأخلاق الحميدة الفاضلة التي يجب مراعاتها والتقيد بها !!

فلماذا إذن يطلبون منا المستحيل ؟

اللهم إلا إذا كانوا يريدون من وراء ذلك التشويشَ والتضليل وتشويه الحقائق ، فذلك شيء آخر .

ولا يفوتني كذلك أن أنوه إلى أننا عندما نذكر مثل هذه الحقائق والبراهين العلمية ، اليقينية التي جاءت مصدقة القرآن أننا قد أخضعنا القرآن الكريم لقوانين الطبيعة والعلوم الأخرى التي هي من صنع البشر ، كما يتبادر لأذهان كثير من الناس ، وإنما الحقيقة ، والواقع أن هذه العلوم الحديثة هي التي خضعت للقرآن الكريم ، حيث وافقت ، وصدقت كل ما جاء في القرآن الحكيم من حقائق ، وبراهين ، وأن أصحابها فعلاً قد قدموا خدمات جليلة لهذا الدين ، ولهذا القرآن ومن حيث لم يشعروا مالم يقدمها المسلمون أنفسهم في هذا العصر .

وسنذكر في هذا البحث ، والبحثين القادمين بإذن الله تعالى ما توصل إليه العلم الحديث من حقائق ثابتة يقينية قد ثبتت فعلاً ودونما مراء ، أو شك .

أما النظريات ، والفروض فإننا سنذكرها ونعلق عليها ، فما كان موافقاً لكتاب الله وسنة رسوله قبلناه ، وما كان مخالفاً رفضناه . والله ولي التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

عبد الله العبادي

وجود الخالق وتفرده بالملك حقيقة مطلقة

إن هنالك من الأدلة القاطعة ، والبراهين الساطعة بما لا يدع مجالاً لمتشكك ، أو مرتاب في وجود الخالق العظيم ، أو نكران ذاته العلية ، ووحدانيته ، وتفرده بالملك ، والقدرة ، والعظمة ، والجبروت : ولنضرب مثالاً واحداً من واقع البشر أنفسهم - ولله المثل الأعلى - لو قيل لنا أن صاروخا قد كون نفسه من أجزائه الدقيقة والكبيرة ، وانطلق من أمريكا نحو الفضاء ، أو أن سيارة قد كونت نفسها ، وانطلقت دون سائق من الشمال إلى الجنوب دون أن يكون للبشر في ذلك أي صلة من قريب أو بعيد فهل سيصدق ذلك النبأ أحد ؟

لا أعتقد أن يوجد من عنده مثقال ذرة من عقل أنه سيصدق مثل ذلك ، إلا من أزال الله عقله ، وأعمى بصيرته ، وهم كثيرون على وجه الأرض .

فإذا كان العقلاء لا يصدقون مثل هذا النبأ ، وهو شيء من صنع الإنسان ، وهو ذرة من ذرات الكون العظيم ، فكيف يحق لعاقل أعطاه الله هذا العقل أن يدعي أن هذا الكون العظيم وما فيه من نظام دقيق محكم ، وإبداع في الخلق - منه ما أطلعنا الله عليه ، فنعقله ، ونراه ، ونلمسه بحواسنا ، ومنه مالا طاقة لنا برؤيته ، أو إدراكه ، أو معرفة كنهه - بدون خالق ، أو مسير له ، أو مدبر له ؟

إنه في الواقع العناد ، والتحدي ، ونكران الواقع والحقيقة وليس سوى ذلك .

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : « كنا مع النبي ﷺ في بعض غزواته ، فمر بقوم ، فقال : من القوم ؟ قالوا : نحن المسلمون ، وامرأة تحضب

(توقد ناراً) بقدرها ومعها ابن لها ، فإذا ارتفع وهج النار تنحت بـه ، فـأتت النبي ﷺ ، فقالت ، أنت رسول الله ؟ قال : نعم ، قالت : بـأبي أنت وأمي ، أليس الله أرحم الراحمين ؟ قال : بلى ، قالت : أليس الله أرحم الراحمين بعباده من الأم بولـدهـا ؟ قـال : بلى ، قـالت : إن الأم لا تلقي ولـدهـا في النـار ، فأكبَّ رسول الله ﷺ يبكي ، ثم رفع رأسه إليها ، فقـال إن الله لا يعذبُ من عبـاده إلا المـارد المتمرد الـذي يتمرد على الله ، وأبى أن يقـول لا إلـه إلا الله »[١] وهناك آيـات وآيـات كثيرة لا حصر لهـا تـدل على وجود الخـالق ووحـدانيتـه وتفرده بـالملـك قـال تعـالى : ﴿ **إنَّ في خَلْقِ السمَواتِ والأَرْضِ واختلاَفِ الليلِ والنَّهارِ والفُلْكِ التي تَجْرِي في البحرِ بِمَـا يَنْفعُ النَّـاس ، ومـا أَنزلَ اللهُ مِنَ السَماءِ مِن مَـاءٍ فـأَحيَـا بـه الأَرضَ بَعْـدَ مَوتِهـا . وبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابـة وَتصْرِيف الرِّيـاحِ . والسَّحَـابِ المسخرِ بيْنَ السماء والأَرْضِ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلون** ﴾[٢] .

ويقـول : ﴿ **أَفَلَمْ يَسيروا في الأَرْضِ فَتَكـونَ لَهُمْ قُلـوبٌ يَعْقلـونَ بِهـا ، أَو آذانٌ يسمعـونَ بهـا فـإنهـا لا تَعمىٰ الأَبْصَـار وَلَكِنْ تَعْمىٰ القُلوب التي في الصُّدور** ﴾[٣] .

ويقول : ﴿ **أَفَلَمْ يَنْظروا إلى السَماءِ فَوْقَهم كيفَ بَنيْنَاها وزَيَّنَّاهـا ومَالَها مِنْ فُرُوج . والأَرْضَ مَدَدْناهـا وأَلْقَيْنـا فِيهـا رَوَاسِيَ وأَنْبتنَـا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بهِيجٍ . تَبْصرةً وذكرىٰ لِكلِّ عبدٍ مُنِيبٍ** ﴾[٤] .

ويقول : ﴿ **أَوَلَمْ يَروْا أَنَّا نَـأْتي الأَرضَ نَنْقُصُهـا مِنْ أَطرافِهـا واللهُ**

---

(١) رواه ابن ماجه .
(٢) البقرة آية : ١٦٤ .
(٣) الحج آية : ٤٦ .
(٤) ق آية : ٦ ـ ٨ .

يَحْكُمُ لا مُعقّبَ لحكمِهِ وَهوَ سَريعُ الحسابِ ﴾[١] .

ويقول : ﴿ **فَلينظر الإنسانُ إلى طَعامِه أنَّا صببنَا الماءَ صَباً . ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرضَ شَقاً . فَأَنْبتنَا فِيها حَباً وعِنباً وَقَضْباً . وزيتوناً ونَخْلاً . وحدائِقَ غُلْباً . وفَاكِهةً وأبّاً . مَتَاعاً لَكُمْ ولأنعامِكم ﴾**[٢] .

ويقول : ﴿ **أَوَلَمْ يَروا كيفَ يُبْدىءاللهُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدهُ إنّ ذَلِكَ على اللهِ يَسيرٌ . قُلْ سِيرُوا في الأَرْضِ فَانْظروا كيفَ بَدأَ الخَلْقَ ثُمَّ الله يُنْشِىءُ النَّشأَةَ الآخرةَ إنّ اللهَ على كلِّ شيءٍ قَدير ﴾**[٣] .

بل إن الإنسان لو تدبر نفسه ، ودرس تكوينها الداخلي والخارجي لكفاه حجة وبرهاناً على وجود الخالق وعظمته قال تعالى : ﴿ **وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرون ﴾**[٤] .

فرغم كل هذه الحجج ، والبراهين الواضحة ، ورغم ما كشفه العلم الحديث من مخلوقات الله تعالى الدالة على قدرة القادر ، والتي لم يكن للإنسان علم بها من قبل ، ولا يراها بعينه المجردة ، ولا بسمعه العادي من عالم دقيق رهيب له خطورته في هذا الكون ، كالجراثيم والمكروبات والجاذبية ، وقوة الكهرباء والهواتف السلكية واللاسلكية .. فإن هذا الإنسان الذي أعطاه الله المقدرة على ذلك لا يزال يتعنت ، ويجحد ، ويحارب الخالق العظيم ، ولا يعترف بوحدانيته ، وصدق الله العظيم حيث يقول : ﴿ **فإنَّها لا تَعْمى الأَبْصار**

---

(١) الرعد آية : ٤١ .
(٢) عبس آيات : ٢٤ ـ ٣٢ .
(٣) العنكبوت آية : ١٩ ـ ٢٠ .
(٤) الذاريات آية : ٢١ .

ولَكِنْ تَعْمى القُلوب التي في الصُّدور ﴾[١] .

يقول جورج إيرل دافيز[٢] : إن التطور الذي تكشف عنه العلوم في هذا الكون هو ذاته شاهد على وجود الله ، فمن جزئيات بسيطة ليس لها صور معينة ، وليس بينها فراغ نشأت ملايين من الكواكب ، والنجوم ، والعوالم المختلفة ، لها صور معينة ، وأعمار محددة تخضع لقوانين ثابتة يعجز العقل البشري عن الإحاطة بمدى إبداعها ، وقد حملت كل ذرة من ذرات هذا الكون ، بل كل ما دون الذرة مما لا يدركه حس ، ولا يتصور صغره عقل ، قوانينها ، وسننها ، وما ينبغي لها أن تقوم به ، أو تخضع له .

هذه أدلة كافية ، ولكن هناك ما هو أشد إعجازاً ، وأكثر دلالة على وجود الله ، فمن تلك الجزئيات البسيطة لم تنشأ النجوم والكواكب فحسب ، بل نشأت كذلك أنواع متطورة من الأحياء بل كائنات تستطيع أن تفكر ، وتبتكر أشياء جميلة ، بل هي تبحث عن أسرار الحياة والوجود ، إن كل ذرة من ذرات هذا الكون تشهد بوجود الله ، وإنها تدل على وجوده حتى دون حاجة إلى الاستدلال بأن الأشياء المادية تعجز عن خلق نفسها[٣] .

ويتساءل « فرانك ألن »[٤] عالم الطبيعة البوليجية : هل نشأة العالم هي

---

(١) الحج آية : ٤٦ .

(٢) عالم الطبيعة حاصل على درجة الدكتوراة من جامعة « منيسوتا » ورئيس قسم البحوث الذرية بالبحرية الأمريكية « بيروكلين » أخصائي في الإشعاع الشمسي ، والبصريات الهندسية ، والطبيعية .

(٣) انظر (الله يتجلى في عصر العلم ص ٤١) .

(٤) ماجستير ودكتوراة من جامعة كورنل أستاذ الطبيعة الحيوية بجامعة « مانيتوبا » بكندا من سنة ١٩٠٤ إلى سنة ١٩٤٤م أخصائي في إبصار الألوان ، والبصريات الفيسلوجية ، وإنتاج الهواء السائل ، وحائز على وسام « تدري » الذهبي للجمعية الملكية بكندا .

مصادفة أو قصد ؟

ثم يجيب : أن كثيراً ما يقال إن هذا الكون المادي لا يحتاج إلى خالق ولكننا إذا سلمنا بأن هذا الكون موجود ، فكيف نفسر وجوده ونشأته ؟

هنالك أربع احتمالات للإجابة عن هذا السؤال : فإما ان يكون هذا الكون مجرد وهم ، وخيال ، وهذا يتعارض مع القضية التي سلمنا بها حول وجوده ، وإما أن يكون له خالق ، فالاحتمال الأول لا يقيم أمامنا مشكلة سوى مشكلة الشعور ، والإحساس فهو يعني أن إحساسنا بهذا الكون ، وإدراكنا لما يحدث فيه ما هو إلا وهم من الأوهام ، ليس له نصيب من الحقيقة ، وانطلاقاً من هذا الرأي ، نستطيع أن نقول : إننا نعيش في عالم كله أوهام ، فمثلاً هذه القطارات ، والطائرات التي نركبها ، ونلمسها ليست إلا خيالات ، وبها ركاب وهميون ، وتعبر بحاراً وأنهاراً لا وجود لها ، وتسير فوق جسور غير حقيقية .. وهذا رأي وهمي في حد ذاته ، لا يحتاج إلى جدال ، أو مناقشة .

أما بالنسبة للرأي الثاني : القائل إن هذا العالم بما فيه من مادة وطاقة قد نشأ هكذا وحده من العدم ، فلا يقل عن القول السابق سخفاً ، وحماقة ، فلا يستحق الجدل ، والمناقشة .

أما الرأي الثالث الذي يقول : إن هذا الكون أزلي ليس لوجوده بداية ، فمن هذا المنطلق إذن ، فنحن إما أن ننسب صفة الأزلية إلى عالم ميت ، وإما أن ننسبها إلى إله حي يخلق ، وليس هناك صعوبة في الأخذ بأحد هذين الاحتمالين ولكن قوانين « الديناميكا » الحرارية تثبت أن مكونات هذا الكون تفقد حرارتها تدريجياً ، وهي سائرة حتماً إلى يوم تصير فيه جميع الأجسام تحت درجة من الحرارة بالغة الانخفاض هي الصفر المطلق ، وحينئذ تنعدم

الطاقة ، وتستحيل الحياة (ولا شك) عند الوصول إلى هذه الحالة .

أما عن الشمس المستعرة ، والنجوم المتوهجة ، والأرض الغنية بكنوزها الحية ، فهي دليل واضح على أن أصل الكون وأساسه يرتبط بزمان بدأ من لحظة معينة ، فهو إذن حدث من الأحداث ، وذلك يعني بداهة أنه لابد من خالق أزلي ليس له بداية . عليم محيط بكل شيء ، ليس لقدرته حدود[١] . ويقول أستاذ الطبيعة الحيوية « بول كلانس ابرسولد »[٢] . « قد لا يستطيع الإنسان أن يسلم بوجود الخالق تسليماً تاماً على أساس الأدلة العلمية المادية وحدها ، ولكننا نصل إلى الإيمان الكامل بالله عندما نمزج بين الأدلة العلمية والأدلة الروحية ، أي عندما ندمج معلوماتنا عن هذا الكون المتسع إلى أقصى حدود الاتساع ، المعقد إلى أقصى حدود التعقيد ، مع إحساسنا الداخلي ، والاستجابة إلى نداء العاطفة ، والروح الذي ينبعث من أعماق نفوسنا ولو ذهبنا نحصي الأسباب ، والدوافع الداخلية التي تدعونا بين الأذكياء من البشر إلى الإيمان بالله ، لوجدناها متنوعة لا يحصيها حصر ، ولا تحد ، ولكنها قوية في دلالتها على وجوده تعالى مؤدية إلى الإيمان به »[٣] .

وهذا فيما يبدو لي كلام صحيح ، ومنطق سليم ، فعلم الإنسان بالأدلة المادية وحدها لا يكفي ، ولا يهديه إلى الإيمان بالله مالم يصحب ذلك أدلة روحية عاطفية تنبع من قلب الإنسان ، وبصيرته تتجه نحو باريها وموجدها .

---

(١) انظر (الله يتجلى في عصر العلم ص ٥ ، ٦) .

(٢) أستاذ الطبيعة الحيوية حاصل على درجة الدكتوراة من جامعة « كاليفورنيا » مدير قسم النظائر والطاقة الذرية في معامل « أوك ريدج » عضو جمعية الأبحاث النووية والطبيعة النووية .

(٣) (الله يتجلى في عصر العلم ص ٣٦) .